مع الثمانين

لقد بلغت الثمانين من العمر فهل لي أن أقول: دخلت في «أرذل العمر»، فلو كان لي أن أقول لقلتُ: لا بلغتها..

وقيل: قد بُلِّغتَها في الدعاءْ ... دعاء ذي داءٍ شديدٍ عَياءْ
لا طِبتَ نفساً ذا زمانٌ عَفَا ... وما لغير الشرّ فيه البقاءْ
مضى بنا السوءُ يقدُ الوَرَى ... فهل زمانٌ يُرتجَى بالدعاءْ
إنَّ الثمانينَ وقد جئتُها ... برغم ما كابَدْتُه من شقاءْ
طوّفنَ من سِربي فعاجلْنَه ... بما تَحمَّلْتُ به من عناءْ
كأنّني لحتُها خومًا ... غمُ بمسراها وضيء السماءْ
وأنّني احسستُ من جزيها ... شافتْ هجاناً تتحدّى الفناءْ
كأنّها جسرَتْ تحتُ الخطا ... وَبِليَ مما شَمَرَت في مضاءْ
قد عاجلَتْني، والنّوى محنةٌ ... قاسَيتُها ولليالي قضاء
وَيحَ الثمانين جَلَبْنَ البِلَى ... وهو سليل الشرّ يِربُ البلاء
دَغهما وجاوزْها لخيرٍ مَضَى ... لم يُبتَذَلْ بزُخرفٍ أو طلاء
غنّيتُ في أمسي على فقره ... ونالني منه وفيرُ السخاء
غنّيتُ ما قد جاءني من غِناءْ ... بعض قوافٍ غَنِيَتْ بالأداء
ما كنتُ أسعى لجميل الثناء ... بل رحتُ في وَجْديَ أبغي النقاء
فلم أكن بالفقر في وحشةٍ ... بل كنت أُلفي فيه بعضَ الثراء
وكان لي ما كان من سفحهِ ... مما تبيّتُ به من عطاء
يا رحمةَ الله على فائتٍ ... من زُهرِ أيّامٍ مِلاء ظِماء
سالتُها ومِلْتُ عن بعضها ... وقد يشين الصفو بعضُ الغُثاء
ما ضَرّني من زَبَدٍ أو جُفاء ... أن كنتُ في حصانةٍ من فتاء
وكان لي صفوة صخبٍ بهم ... آتيَ عن وَغث القَذَى في وِقاء
قد كنتُ أُغضي عن هِناتٍ بما ... يضيع منها في ثنايا الصفاء

• • •

ويح الثمانين وقد جئتها ... مُحاصَراً وليس لي من نجاء
قد وَهَنَ العظمُ وبي كَبْرَةٌ ... أقسو عليها بكريم الإباء
وأفنتني الأيام لا أدري ... بهامها وهي تجيد الرماء
وكم يُطيق المرُ ذو غُربةٍ ... يلقى بما يَصلاه بعض العزاء
طُوبَى لمقهورٍ خبا نوره ... فعاشَ في جُرحٍ به أيّ داء
فأين مما فيه بعض الدواء ... فهل له أن يَتَحرّى الشفاء
طُوبَى لمن جُرّد عن أمسه ... وذيدَ عنه كلُّ رَحْبٍ فضاء
ويا أسَى المنزوعِ عن غرسه ... قد ديسَ غرسٌ وعداكَ انتماء
ويا أخا العُمر وُقيتَ النوى ... صَنعتَ خيراً، هل أصبتَ الجزاء؟
أمسُكَ ضاحٍ بشميم الضحى ... رَفَّ الشذى في صبحه والمساء
أيَلْنيَ النجوى تعيد الهوى ... وكيف داري ورحيب الفِناء؟

* * *

يا صاحبي البعيد هل من حمىً ... أصبتَه مغترباً في جفاء
تَغيّرت بعدكَ أيّامنا ... فحالُنا من كل همسٍ خواء
يا صاحبي الغريب هل من رجاءٍ ... طالَ بنا الليلِ فأين الرجاء؟
إنا نسينا خادعاتِ المُنى ... بما نسينا من نعيم الرخاء
أفي الثمانين يعاني الأسى ... من باتَ لا يعرف إلا العَفاء؟
كأنّ في الدار التي جئتها ... ما يعتريني من تجنّي الخلاء
أُجيل طرفي في بعيدٍ دُجا ... كأنّني أرمي به في العَراء
فلا الرياضُ الحاليات الذُرى ... تأخذني ولا المنيف البناء
إنّ الثمانينَ أما أخلَقَتْ ... لا بُورِكَتْ، فكيف تُجري الدعاء؟
إنّي لأعنيها ببعض الرثاء ... إنْ لم يكنْ منّي نشيجُ البكاء
دجا أمامي كلُّ ما يجتلي ... من ريبةٍ لم تبدُ لي من وراء
يا صاحبي البعيد هل نبأةٌ ... نبيلةٌ أستَفُّ منها الرُؤاء؟
فما أرانا بعد طول الشقاء ... إلاّ الأُلى قد آمنوا بالوفاء
إنّا لَننمى لكرامٍ أبَوا ... من العراق الشمخ إلاّ الوَلاء
يا صاحبي البعيد لي حاجة ... أطمع فيها أن تجيبَ النداء
إني لأرجو منك بعضَ الوفاء ... وقد دعاني منك طيفُ اللقاء
أتسمعُ الموجِعَ من صيحتي ... فيما اعتراني من وجيع الفِناء

حبَوتُها نفسي وصُنتُ الحِياءْ   وكان فيها ليَ بعضُ الغَناء
أخي البعيد الدار، لو صِرتَ لي   ممن يُمدّ اليوم حبلَ الإخاء
لكنتَ أوفى بالذي جَنّ بي   في أضلعٍ بالوجد منّي رِواء
لكنّني أمسَيتُ في عالمٍ   سُوِّدَ فيه كلُّ نخبِ هواء
يا بؤس مَن يحمل زَيفَ اللواءْ   يسعى إلى الذروة يبغي العلاء
ساءلْتُ نفسي كيفَ الهدى   وقد تحدّى العصرَ أهل الغباء
ولم يكن للعلم فينا هَوَى   وقد طَوَى البساط أهل الذكاء
قد كانَ ما كان فإنا إلى   غدٍ ويبدو فيه ذَربُ الفَناء
قد كانَ من ذا بعضُ ما قالَ لي   أخٌ قَضَى مع رفقةٍ في الخفاء
تَخلَّ عن ذا واستفدْ حكمةً   يوشك أن يقضي عليها الهُراء
ويخ الثمانين جلَبْنَ الذي   ضقتُ به، لو كان بعضُ «البَداءْ»

ابراهيم السامرائي

عمّان في ١٩٩٦/٩/٢٩

